

تفسير ابن كثير

إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا

ولهذا قال : (إن لك في النهار سبحا طويلا) قال ابن عباس وعكرمة وعطاء بن أبي مسلم : الفراغ والنوم . وقال أبو العالية ومجاهد وابن مالك والضحاك والحسن وقتادة والربيع بن أنس وسفيان الثوري : فراغا طويلا . وقال قتادة : فراغا وبغية ومنقلبا . وقال السدي : (سبحا طويلا) تطوعا كثيرا . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : ([إن لك في النهار] سبحا طويلا) قال : لحوائجك ، فأفرغ لدينك الليل . قال : وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة ، ثم إن الله من على العباد فخففها ووضعها ، وقرأ : (قم الليل إلا قليلا) إلى آخر الآية ، ثم قال : (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل) حتى بلغ : (فاقروا ما تيسر منه) [الليل نصفه أو ثلثه . ثم جاء أمر أوسع وأفسح وضع الفريضة عنه وعن أمته] فقال : قال : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) [الإسراء : 49] وهذا الذي قاله كما قاله . والدليل عليه ما رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال : حدثنا يحيى ، حدثنا سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن زرارة

بن أوفى عن سعيد بن هشام : أنه طلق امرأته ثم ارتحل إلى المدينة لبيع عقارا له بها
ويجعله في الكراع والسلاح ، ثم يجاهد الروم حتى يموت ، فلقي رهطا من قومه فحدثوه أن
رهطا من قومه ستة أرادوا ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " أليس
لكم في أسوة ؟ " فنهاهم عن ذلك ، فأشهدهم على رجعتها ، ثم رجع إلينا فأخبرنا أنه
أتى ابن عباس فسأله عن الوتر ، فقال : ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله صلى
الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . قال : ائت عائشة فاسألها ثم ارجع إلي فأخبرني بردها عليك .
قال : فأتيت على حكيم بن أفلح فاستلحقته إليها ، فقال : ما أنا بقاربها ؛ إني نهيتها أن تقول
في هاتين الشيعتين شيئا ، فأبت فيهما إلا مضيا ، فأقسمت عليه ، فجاء معي ، فدخلنا
عليها فقالت : حكيم ؟ وعرفته ، قال : نعم . قالت : من هذا معك ؟ قال : سعيد بن هشام
. قالت : من هشام ؟ قال : ابن عامر . قال : فترحمت عليه وقالت : نعم المرء كان عامر .
قلت : يا أم المؤمنين ، أنبئني عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : أأنت
تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قالت : فإن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن ،
فهملت أن أقوم ، ثم بدا لي قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت : يا أم المؤمنين

، أنبئني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت : ألت تقرأ هذه السورة : (يا أيها المزمل) ؟ قلت : بلى . قالت : فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم ، وأمسك الله خاتمها في السماء اثني عشر شهرا ، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعا من بعد فريضة ، فهمت أن أقوم ، ثم بدا لي وتر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت : يا أم المؤمنين ، أنبئني عن وتر رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت : كنا نعد له سواكه وطهوره ، فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل ، فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلي ثماني ركعات لا يجلس فيهن إلا عند الثامنة ، فيجلس ويذكر ربه تعالى ويدعو] ويستغفر ثم ينهض وما يسلم . ثم يصلي التاسعة فيقعد فيحمد ربه ويذكره ويدعو [ثم يسلم تسليما يسمعنا ، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم ، فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني ، فلما أسن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ اللحم ، أوتر بسبع ، ثم صلى ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم ، فتلك تسع يا بني . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها ، وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو

مرض ، صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة ، ولا أعلم نبي الله صلى الله عليه وسلم قرأ القرآن كله في ليلة ، ولا قام ليلة حتى أصبح ، ولا صام شهرا كاملا غير رمضان . فأتيت ابن عباس فحدثته بحديثها ، فقال : صدقت ، أما لو كنت أدخل عليها لأتيتها حتى تشافهني مشافهة . هكذا رواه الإمام أحمد بتمامه . وقد أخرجه مسلم في صحيحه ، من حديث قتادة بنحوه . طريق أخرى عن عائشة في هذا المعنى : قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا زيد بن الحباب - وحدثنا ابن حميد ، حدثنا مهرا ن قالا جميعا ، واللفظ لابن وكيع : عن موسى بن عبيدة ، حدثني محمد بن طحلاء ، عن أبي سلمة ، عن عائشة قالت : كنت أجعل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حصيرا يصلي عليه من الليل ، فتسامع الناس به فاجتمعوا ، فخرج كالمغضب - وكان بهم رحيمًا ، فخشى أن يكتب عليهم قيام الليل - فقال : " أيها الناس ، اكلفوا من الأعمال ما تطيقون ، فإن الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل ، وخير الأعمال ما ديم عليه " . ونزل القرآن : (يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه) حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق ، فمكثوا بذلك ثمانية أشهر ، فرأى الله ما يبتغون من رضوانه ، فرحمهم

فردهم إلى الفريضة ، وترك قيام الليل .ورواه ابن أبي حاتم من طريق موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف . والحديث في الصحيح بدون زيادة نزول هذه السورة ، وهذا السياق قد يوهم أن نزول هذه السورة بالمدينة ، وليس كذلك ، وإنما هي مكية . وقوله في هذا السياق : إن بين نزول أولها وآخرها ثمانية أشهر - غريب ; فقد تقدم في رواية أحمد أنه كان بينهما سنة .وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن مسعر ، عن سماك الحنفي ، سمعت ابن عباس يقول : أول ما نزل : أول المزمّل ، كانوا يقومون نحوًا من قيامهم في شهر رمضان ، وكان بين أولها وآخرها قريب من سنة .وهكذا رواه ابن جرير ، عن أبي كريب ، عن أبي أسامة به .وقال الثوري ومحمد بن بشر العبدي كلاهما عن مسعر ، عن سماك ، عن ابن عباس : كان بينهما سنة . وروى ابن جرير ، عن أبي كريب ، عن وكيع ، عن إسرائيل ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس مثله .وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهراّن ، عن سفيان ، عن قيس بن وهب عن أبي عبد الرحمن قال : لما نزلت : (يا أيها المزمّل) قاموا حولًا حتى ورمّت أقدامهم وسوقهم ، حتى نزلت : (فاقراءوا ما تيسر منه) قال : فاستراح الناس .وكذا قال الحسن

البصري .وقال ابن أبي حاتم : [حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري ،
حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبي] عن قتادة ، عن زرارة بن أوفى عن سعد بن هشام قال :
فقلت - يعني لعائشة - : أخبرينا عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت : أأست
تقرأ : (يا أيها المزمل) ؟ قلت : بلى . قالت : فإنها كانت قيام رسول الله صلى الله عليه
وسلم وأصحابه ، حتى انتفخت أقدامهم ، وحبس آخرها في السماء ستة عشر شهرا ، ثم
نزل .وقال معمر عن قتادة : (قم الليل إلا قليلا) قاموا حولا أو حولين ، حتى انتفخت
سوقهم وأقدامهم ، فأنزل الله تخفيفها بعد في آخر السورة .وقال ابن جرير : حدثنا ابن
حميد ، حدثنا يعقوب القمي ، عن جعفر عن سعيد - هو ابن جبير - قال : لما أنزل الله
تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم : (يا أيها المزمل) قال : مكث النبي صلى الله عليه
وسلم على هذه الحال عشر سنين يقوم الليل ، كما أمره ، وكانت طائفة من أصحابه
يقومون معه ، فأنزل الله عليه بعد عشر سنين : (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي
الليل ونصفه وثله وطائفة من الذين معك) إلى قوله : (وأقيموا الصلاة) فخفف الله
تعالى عنهم بعد عشر سنين .ورواه ابن أبي حاتم ، عن أبيه ، عن عمرو بن رافع ، عن

يعقوب القمي به .وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : (يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا [أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا) فأمر الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلا [فشق ذلك على المؤمنين ، ثم خفف الله عنهم ورحمهم ، فأنزل بعد هذا : (علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض) إلى قوله : (فاقراءوا ما تيسر منه) فوسع الله - وله الحمد - ولم يضيق .